البعد الكولونيالي في المدرسة الفرنسية التقليدية للأدب المقارن

THE COLONIAL DIMENTION IN THE TRADITIONAL FRENCH SCHOOL OF COMPARATIVE LITERATURE

د. محمد بكادي
المركز الجامعي الحاج موسى أخموك –تمنراست(الجزائر)
mohamedbakadi@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/03/08 تاريخ القبول:2019/03/17 تاريخ النشر: 2019/04/01

الملخص :

تعتبر المدرسة الفرنسية التقليدية، أحد أهم المدارس والاتجاهات في الأدب المقارن، وهي مدرسة كان لها السبق في الظهور، وظلت هي المدرسة الوحيدة السائدة في هذا العلم على الساحة، لقرابة قرن كامل من الزمن ، وهي مدرسة تعتمد في دراستها المقارنة على استقصاء عملية التأثير والتأثر بين مختلف الآداب القومية، ورصد الظروف والملابسات المتعلقة بهذه العملية ودراستها دراسة تاريخية.

والمدرسة الفرنسية التقليدية هي مدرسة اتبعت منهجا خاصا في دراستها المقارنة، تمثل في اعتماد مبادئ وأسس خاصة، وهي مبادئ وأسس امتزجت فيها التقنية الأكاديمية، مع الخلفية الكولونيالية التي كانت سائدة في تلك الحقبة في الثقافة والفكر الفرنسي بشكل عام .

وبحثي هذا يتطرق إلى هذه المدرسة وللبعد الكولونيالي أو الاستعماري في أدبياتها ومرتكزاتها . وذلك من خلال تناول أهم المبادئ والأسس التي قامت عليها، وكذا القواعد التي اشترطتها في دراستها المقارنة .وتبيان بعدها الخفي والمتمثل في البعد الكولونيالي الذي كان يمثل جزء لا يتجزأ من تشكيلها، ومن منهجيتها في الدراسة الأدبية المقارنة .

الكلمات المفتاحية : الكولونيالية; الأدب المقارن ; المدرسة الفرنسية التقليدية; التأثير والتأثر;الاستعمار;

ABSTRACT :

the classic french school , is one of the important schools in comparative literature , and it was the first school on appearance , it longed about one century , in its comparative studies , it depends on catching the influence between the dreferent world literatures .

the classic french school follow a special approach in comparative studies , by mixing between academic technic and colonial background which took place in the french culture and thought .

In my research , I will look for the french school and colonial dimension in its literature dealing , and I will focus on its basis , and how it deal with comparative literature , especially the colonial dimension , which was the main part of french school studies.

Keywords : colonialism ; comparative literature ; traditional French school ; the influence ; colonialism

تمهيـد :

يعرَّف الأدب المقارن بأنه: العلم" الذي يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغـاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو في ماضيـها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثر أيا كانت مظاهـر ذلك التأثيـر أو التأثر سـواء تعلقـت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكى في الأدب."[1]

ومن خلال هذا التعريف نتبين الطبيعة الأكاديمية لعلم الأدب المقارن، ولوظيفته العلمية المتمثلة في دراسة العديد من المجالات التي تدخل ضمن مهامه، وفق قواعد تقنية معينة لغرض الوصول إلى نتائج علمية موضوعية.

ولكن، وبالرغم من هذه المهمة العلمية والأكاديمية والتقنية لهذا العلم، إلا أننا حين ندقق في مبادئ وأسس أول وأعرق مدرسة من مدارسه، وهي المدرسة الفرنسية (التقليدية) ، نجد أن هذه المدرسة لم تقف عند حدود الوظيفية العلمية لهذا العلم، بل حاولت توظيفه توظيفا خارجا تماما عن تلك الوظيفة التي من المفترض أن تكون هي الوظيفة الوحيدة المناطة به كعلم من العلوم الدارسة للأدب. وذلك لكون أن هذه المدرسة، قد أرادت أن تسند لهذا العلم مهمة أخرى هي في الأساس أبعد ما تكون عن العلمية والأكاديمية وهي المهمة الكولونيالية. مما جعل هذا العلم عند هذه المدرسة يكتسب بعدا آخر هو البعد الاستعماري.

ولأهمية هذا الأمر فإننا سنحاول أن نسلط الضوء، من خلال هذا البحث، على هذه الزاوية تحديدا؛ أي: زاوية البعد الكولونيالي لهذا العلم في المبادئ والأسس التي قامت عليها المدرسة الفرنسية التقليدية.

أولا: التعريف بالمدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن

أ : التعريف بالمدرسة :

المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن، هي إحدى المدارس والاتجاهات المهمة في الأدب المقارن، وذلك باعتبارها المدرسة الأولى أو الاتجاه الأول الذي ظهر في هذا العلم، والذي ظهر .تحديدا .في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر، واستمرت سيطرته كاتجاه وحيد في ساحة الأدب المقارن إلى غاية أواسط القرن العشرين، أي أنه دام كاتجاه وحيد يدور في فلكه هذا العلم، وكمدرسة وحيدة تنظر له قرابة القرن من الزمان تقريبا.[2]

عنيت هذه المدرسة وركزت في دراستها المقارنة في بدايات نشأتها على مجال واحد هو مجال التأثير والتأثر بين الآداب، أي على دراسة كل ما يتعلق بعملية التأثير بين مختلف الآداب القومية، وذلك من خلال رصد كل ما يحيط بتلك الأعمال الأدبية التي وقع بينها تأثيرا وتأثرا، وذلك بالوقوف على الظروف الخارجية التي تحيط بهذه الأعمال، كالظروف التاريخية ،والسياسية، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والفكرية من جهة ، وبالظروف

والملابسات التي تحيط، أيضا، بالأدباء أو الكتاب أو المبدعين المنتجين لتلك الأعمال، من جهة أخرى. معتمدة في دراستها لذلك التأثير والتأثر بين تلك الأعمال الأدبية على المنهج التجريبي، بحيث لا تكتفي بمجرد تخمين وجود الظاهرة،فحسب، بل بإثباتها واستعراض القرائن والبرهنة على وجودها بالأدلة والوثائق الملموسة التي لا تدع مجالاً للشك أو الريب.[3]

والمدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن تستند إلى خلفيات نظرية وفلسفية " تأتي في المقدمة منها النزعة التاريخية في دراسة الأدب، تلك النزعة التي انتشرت على نطاق واسع في فرنسا وأوروبا على امتداد القرن التاسع عشر. والتي يرى أصحاب هذه النزعة أنّ تاريخ الأدب هو، في جزء كبير منه، تاريخ مصادره (Quellen)، ومواضيعه (Themen) وموادّه الأدبية (Stoffe) التي تنتقل داخل الأدب القومي وبين الآداب القومية بصورة يمكن دراستها وتتبعها بالوثائق والأدلة".[4]

ب- التعريف بأهم أعلامها:

من أهم أعلام هذه المدرسة وروادها الذين ساهموا في تأسيسها ونشأتها، واعتنقوا آرائها ،ونظروا لمبادئها وأسسها في أبحاثهم وكتبهم، هم:

1- جان ماري كاريه Jean Marie Carée

جان ماري كاري هو رائد من الرواد الأوائل للمدرسة الفرنسية التقليدية، ومن المنظرين البارزين في علم الأدب المقارن، بحيث أنه كان من المقارنيين الأوائل الذين حاولوا أن يعرفوا بهذا العلم ،أي : علم الأدب المقارن، ويبينوا طبيعته وحدود دراسته واختصاصاته، ومختلف المجالات التي تدخل في نطاق دراساته، وهو المقارني الذي عرف الأدب المقارن ، على أنه " فرع من التاريخ الأدبي ،لأنه دراسة للعلائق الروحية الدولية، والصلات الواقعية، التي توجد بين بيرون ،وبوشكين وجوتة وكارليل، ووالترسكوت ،وفيني ، أي بين المنتجات والإلهامات ، بل بين حيوات الكتاب المنتمين إلى آداب عدة، وهو لا ينظر من وجهة جوهرية، إلى المنتجات من حيث قيمتها الأصلية، ولكنه يعني على الأخص ، بالتحولات ، التي تخضع لها كل دولة أو كل مؤلف مستعاراته".[5]

2- ماريوس فرانسوا غويار Marius Francois-Guyard :

وهو مقارني فرنسي ورائد من الرواد المؤسسين للمدرسة الفرنسية التقليدية ، وهو من الذين تتلمذوا على يد المقارني الفرنسي جان ماري كاريه، ويعتبر ماريوس فرانسوا غويار من المقارنيين الذين كانت لهم آراء نقدية مهمة في مسألة إشكالية مصطلح ومفهوم علم الأدب المقارن ،وهي إشكالية عدم تلاؤم تسمية هذا العلم مع مفهومه ومدلولاته، فكان من الرافضين لتسميته بـ(الأدب المقارن) لأنه رأى أن هذه التسمية هي ضعيفة الدلالة على مفهومه، ورأى أن مصطلح الأدب المقارن هو مصطلح ناقص وغير دقيق ولا يوافق مفهومه في شيء. وهو مصطلح ضعيف الدلالة على المقصود منه ولا يعبر ـ مطلقا ـ على مجال الدراسة أو الدراسات التي أطلق

عليها، وأن تسميته بـ (الأدب المقارن)، هي تسمية قاصرة عن التعبير عن جملة المجالات والميادين التي من المفروض أنه يُعنى بدراستها، ولذلك فقد كان من جملة المقارنيين والنقاد الذين لم يكتفوا برفض مصطلح (الأدب المقارن)، فحسب ، بل حاولوا أن يستبدلوا ذلك المصطلح بمصطلحات وتسميات تتلاءم وطبيعته. حيث قدم مصطلحا بديلا لهذا المصطلح، وهو: (تاريخ العلاقات الأدبية الدولية)[6]، بدلا عن مصطلح : (الأدب المقارن).

ويعتبر فرانسوا غويار من المنظرين البارزين الأوائل في المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن، ويعد كتابه الذي أصدره عام 1951، والذي كان بعنوان : (الأدب المقارن La Littérature Comparée) ، والذي تناول فيه دراسة نظرية لمفاهيم علم الأدب المقارن، ولمناهجه ومجالات البحث فيه، أحد أهم الكتب النظرية التي كتبت في مجال علم الأدب المقارن خلال القرن العشرين.[7]

3- بول فان تيغم Paul Van Tieghem

هو أحد أقطاب المدرسة الفرنسية التقليدية، ومن روادها البارزين ، وأحد منظريها الذين كانت أرائهم المتعلقة بعلم الأدب المقارن من أكثر الآراء رواجا وانتشارا فقد كان كتابه المعنون بـ(الأدب المقارن La Littérature Comparée)، والذي ألفه في النصف الأول من القرن العشرين، وبالتحديد سنة 1931، من أكثر الكتب التي نظرت لعلم الأدب المقارن، والتي لاقت رواجا كبيرا، واستقبالا متميزا وحظيت بالانتشار الواسع ، حتى أن هذا الكتاب كان أول كتاب تنظيري في علم الأدب المقارن تتم ترجمته للغة العربية. وهو كتاب هدف المقارني بول فان تيغم من تأليفه إلى" رسم معالم الأدب المقارن، وتحديد أسسه ومنطلقاته. بدأ من المصطلح وتعريفه وتاريخ ظهوره، مرورا بأسسه ووسائله ومهامه ونتائجه، بما في ذلك، الأنواع، والأساليب والمواضيع، والأشخاص، والخرافات، والتأثر والتأثير وأشكاله وأنواعه وقوانينه، والمصادر والوسطاء ودورهم في عملية التبادلات الأدبية."[8]

ولقد كان للتعريف الذي عرف به بول فان تيغم علم الأدب المقارن، والذي قال فيه بأن: " المقارنة تعني التقريب بين وقائع مختلفة ومتباعدة في غالب الأحيان وذلك رجاء استخلاص القوانين العامة التي تسيطر عليها ، والأدب المقارن الحقيقي يحاول ككل علم تاريخي ،أن يشمل أكبر عدد ممكن من الوقائع المختلفة الأصل حتى يزداد فهمه وتعليله لكل وحدة منها على حدة فهو يوسع أسس المعرفة كما يجد أسباب أكبر عدد ممكن من الوقائع"[9] دور كبير في التعريف بعلم الأدب المقارن وطبيعته، وفي رسم أبرز معالمه ومجالاته، وكذا الشروط المتعلقة بدراساته المقارنة، وذلك بطبيعة الحال، حسب وجهة نظر المدرسة الفرنسية التقليدية في هذا المجال.

ثانيا: التعريف بالكولونيالية

الكولونيالية، أو الاستعمارية (colonialism)؛ هو مصطلح يطلق على الهيمنة والسيطرة والتأثير الذي تفرضه دولة مستعمِرة على الكيان التابع لها، أو على دول وشعوب دول أخرى تقع تحت حكمها أو سيطرتها في جميع المجالات، سواء السياسية، أو الاجتماعية أو الثقافية. وقد نشأ هذا المصطلح بالتوازي مع ازدهار الرّأسماليّة كقوّة عملاقة صاعدة في العالم الغربي، والغزو الأوربي لآسيا وإفريقيا. وهو مصطلح مرادف للإمبريالية.[10]

وللعلم فإن الكولونيالية، أو الاستعمارية، أو الإمبريالية، كانت كثيرا ما تطلق ويراد بها الهيمنة السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية، ولكن في واقع الأمر فإن جانبها الثقافي والفكري لا يقل عن هذين الجانبين أثرا إن لم يكن أثره أبلغ وأخطر.[11]

ثالثا: تجلي البعد الكولونيالي في المدرسة الفرنسية

لقد ظهرت المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن، كما هو معروف خلال القرن التاسع عشر. والقرن التاسع عشر ،كما هو معلوم ،أيضا، كان حقبة زمنية تعج بالصراعات والنزاعات الدولية بشتى أنواعها وأشكالها؛ السياسية والأيديولوجية، والثقافية، وساد فيه التنافس الشديد بين غالبية دول العالم، ولاسيما بين الدول الأوروبية التي كانت تمثل الدول القوية حينها، ولذلك فقد كانت الغالبية من هذه الدول في نزاع وصراع؛ بعضه خفي، وبعضه معلن من أجل فرض السيطرة وبسط النفوذ على الدول الأخرى أو الدول الضعيفة حينها والتي كان اغلبها من مستعمراتها مثل بعض الدول الإفريقية، وبعض الدول الأسيوية، وبالخصوص فرنسا التي كانت لها في تلك الحقبة، رغبة شديدة في استرجاع مكانتها الثقافية الماضية،من خلال بسط السيطرة الثقافية على المستعمرات الفرنسية في البلدان الإفريقية[12]. ويبدو أن هذا المناخ الذي كان سائدا في تلك الفترة الزمنية قد تغلغل حتى في الجانب العلمي والأكاديمي وأثر بشكل قد يكون مباشرا أو غير مباشر في العديد من الآراء الفكرية والعلمية لبعض المنظرين والأكاديميين في بعض المدارس العلمية وبعض الاتجاهات الفكرية في ذلك الحين .

ومن الاتجاهات التي انعكست عليها وضعية تلك الحقبة، ولعبت دورا كبيرا وبارزا في تشكيل أسسها ومبادئها، هي المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن وهي المدرسة التي كانت النزعة الاستعمارية، أو الكولونيالية حاضرة بشكل لافت في تنظير أعلامها وأقطابها ومنتسبيها من المنظرين في المسائل والقضايا المتعلقة بعلم الأدب المقارن، والتي يمكننا أن نتلمس القرائن على وجودها بشكل كبير عندما نمعن النظر في مبادئها ومرتكزاتها، والقواعد والأسس والضوابط والشروط الصارمة التي وضعتها كأساس للدراسة المقارنة.

ولو تتبعنا هذه الشروط المنهجية التي وضعتها هذه المدرسة للدراسة المقارنة نجدها محصورة تقريبا في ثلاثة شروط رئيسة؛ وهي شروط تعتبرها المدرسة الفرنسية التقليدية ضوابط تقنية وفنية، وشروطا منهجية

صرفة للدراسة المقارنة، هدفها الأساس - حسب زعمها - هو وضع معايير و قواعد منهجية خاصة للدراسة الأدبية المقارنة التي تدخل في مجال الأدب المقارن،من شأنها أن تميز هذا النوع من الدراسات عن بقية الدراسات الأدبية الأخرى؛ كالدراسات النقدية على سبيل المثال.

ولكن، في واقع الأمر نجد أن هذا الطرح يفتقر للدقة نسبيا ، وذلك لأننا حين نتدبر هذه القواعد والشروط التي وضعتها هذه المدرسة لتحدد الإطار الذي تتم فيه الدراسات المقارنة، نجدها لا تقف عند حدود الطابع التقني والفني الأكاديمي، وأن هدفها ليس فقط تحديد الإطار المنهجي للدراسات الأدبية المقارنة، ولكنه يتعداه لهدف آخر، قد لا يكون ظاهرا بشكل مباشر في تلك القواعد والضوابط والشروط ، ولكنه موجودا ولا يقل في شيء عن الهدف الأكاديمي التقني المعلن إن لم نقل أنه قد يكون أكثر منه استهدافا، وهو الهدف الكولونيالي الاستعماري.

ولتبيين هذا البعد الكولونيالي، وهذا الهدف الاستعماري الذي كان مستهدفا من طرف المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن، فإني سأقف على هذه الشروط المبدئية الثلاثة التي وضعتها هذه المدرسة واعتبرتها شروطا أساسية لا تتم الدراسة المقارنة في مجال الأدب المقارن إلا بتوفرها، وذلك من خلال عرضها وتحليلها وإبراز بعدها الكولونيالي، ومواطن النزعة الاستعمارية الذي رصدته فيها. وهذه الشروط الثلاثة كما وضعتها المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن ، تتمثل في الأتي :

الشرط الأول : حصر الدراسة المقارنة في الأجناس الأدبية المختلفة القومية.

لقد أرادت المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن، أن تجعل من الدراسات الأدبية المقارنة دراسات متميزة في منهجها وشروطها وحدودها ومجالها عن عن بقية الدراسات التي تقوم بها بعض العلوم الدارسة للآداب ،كالدراسات النقدية، مثلا، أو غيرها من الدراسات الأخرى . ولذلك فقد كان شرط حصر الدراسة الأدبية المقارنة في ما بين الأجناس الأدبية المختلفة القومية فحسب في مجال الأدب المقارن، من بينشروطها الأساسية التي تجعل من تلك الدراسة تنتمي للدراسات المقارنة، التي تجرى في إطار علم الأدب المقارن.[13]

وهذا الشرط يعني أن هذه المدرسة تؤكد على:

أولا؛ أن تكون الأعمال المعنية بالمقارنة هي أعمال أدبية خالصة ، أي محصورة في ما بين الأجناس الأدبية، فحسب،ولا تخرج عن إطار النصوص الأدبية، بخلاف رأي نظيرتها المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن، التي توسعت في نطاق الدراسة المقارنة لتشمل المقارنة بين الأجناس الأدبية فيما بينها، وبين الأجناس الأدبية وغيرها من فروع المعرفة الأخرى كالفلسفة والتاريخ والعلوم الاجتماعية والعلوم الدينية،و كذلك الفنون المختلفة ؛ مثل كالرسم والنحت والموسيقي وغيرها من مجالات التعبير الإنساني الأخرى .[14]

ثانيا ؛ أن لا تكون هذه الأعمال الأدبية التي تكون محلا للدراسة المقارنة من أدب قومي واحد، بل يجب أن تكون من قوميات مختلفة ، وما يحدد القومية عند هذه المدرسة هو: (اللغة) . أي أن القومية التي ينتمي إليها العمل الأدبي تصنف عن طريق اللغة التي كُتب بها.[15] بمعنى أن العمل الأدبي إذا ما كتب بالفرنسية فهو أدب قومي فرنسي ، مهما كان موطن كاتبه أو جنسيته أو عرقه أو ثقافته أو حتى نمط تفكيره . و بالتالي فأعمال الكاتب البرازيلي باولو كويلو ،مثلا، تنتمي في مفهوم المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن للأدب البرتغالي، باعتبار أن تلك الأعمال مكتوبة بالبرتغالية، وأن المحدد للقومية هي اللغة . وللاعتبار نفسه تعد الكتابات التي كتبها الكتاب الجزائريون مثل ؛محمد ديب، أو كاتب ياسين ، أو مالك حداد ، أو آسيا جبار أو غيرهم من الكتاب الجزائريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية ، كتابات تنتمي للأدب القومي الفرنسي .

وفي حقيقة الأمر، فإننا عندما نقف عند هذا الشرط، وعلى تأكيد هذه المدرسة على ضرورة اختلاف القومية التي جعلت معيارها (اللغة) ؛ [16] الذي هو معيار لساني ، وإهمالها لكل المعايير الأخرى التي لها علاقة وطيدة جدا بالقومية ،والتي من المفروض أن تكون مقدمة على ذلك المعيار الذي اختارته، كالمعيار الجغرافي، والثقافي والديني، والإثني. نجد أن هذا الشرط هو أبعد ما يكون عن العلمية ، وهو أقرب للتوظيف الاستعماري الكولونيالي منه للتنظير الأكاديمي العلمي باعتبار أن هذا الشرط يهدف، من وجهة نظري، لتثبيت وترسيخ الهيمنة الثقافية للدول المستعمِرة عموما ، ولفرنسا بشكل خاص باعتبارها دولة مستعمِرة للعديد من البلدان والدول ، التي كان العديد من كتابها وأدبائها وشعرائها ومبدعيها يكتبون باللغة الفرنسية، وذلك ،طبعا، من أجل الحصول على مزايا ثقافية تضاف إلى رصيد الأدب القومي الفرنسي، من جهة، والحكم علميا وثقافيا من خلال ذلك الطرح على تلك الدول بتبعيتها الفكرية والثقافية و الأدبية للثقافة والفكر والأدب الفرنسي .

الشرط الثاني: أن يكون المؤثر أدبا موجبا والمتأثر أدبا سالبا

لقد قسمت المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن الآداب القومية، وثقافات العالم إلى قسمين؛" قسم موجب وقسم سالب، وربطت عملية التأثير والتأثر بحالة الاستعمار، وعلاقة الدول المستعمِرة بالدول المستعمَرة ، فترى أن آداب وثقافات الدول المستعمَرة هي دائما الأقوى وهي دائما المؤثرة وعلى ذلك يكون أدبها موجبا، وأن أدب وثقافة الدول المستعمَرة هي الضعيفة، وبالتالي فهي المتأثرة دائمـا." [17] ، وهو ما يعني أن الآداب القومية للدول ، من وجهة نظر هذه المدرسة ليست من مقام واحد، بل هي صنفان صنف راق مميز ، وصنف غير راق، وبالتالي فدراسة التأثير والتأثر بين مختلف الآداب القومية التي تتناولها الدراسة الأدبية المقارنة من وجهة نظر هذه المدرسة هي دراسة تحكمها قاعدة أساسية تتمثل في أن يكون دائما الطرف المؤثر هو من الآداب القومية الراقية،(الآداب الأوروبية)، والطرف المتأثر من بقية الآداب القومية الأخرى، وبالتالي فعملية التأثير والتأثر بين مختلف الآداب القومية – حسب منهجها - هي عملية غير تبادلية.

وحسب ظني ، فإن الناظر في هذا الشرط لا يحتاج لجهد كبير حتى يقف فيه على البعد الكولونيالي للمدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن، لأن أساس التقسيم الذي قسمت به هذه المدرسة آداب وثقافات العالم

إلى موجب وسالب هو تقسيم استعماري كولونيالي بامتياز، والمدرسة الفرنسية التقليدية لم تنكر ذلك ولم تخفيه بل بالعكس فقد جاهرت به ونظَّرت له، حين ربطته في نظريتها بحالة الاستعمار، حين قالت صراحة بأن آداب وثقافات الدول المستعمِرة هي الموجبة التي تكون المؤثرة دائما لكونها القوية وهي التي تمثل الحضارة ،أما الدول المستعمَرة، وخصوصا العربية والإفريقية فهي تتأثر فقط باعتبارها ضعيفة ولا تمتلك ما تقدمه للآداب القومية الأخرى .[18]

الشرط الثالث: أن يتوفر الرابط التاريخي بين الأعمال الأدبية.

وهذا الشرط هو شرط جوهري فرضته المدرسة الفرنسية التقليدية، [19] وهو يعني أن أي دراسة أدبية تقارن بين عملين أدبيين أو مجموعة أعمال أدبية لا تدخل تحت مجال الدراسة الأدبية المقارنة إلا إذا ثبت بالقرائن والأدلة التاريخية أن عنصر التأثير والتأثر متوفرا بين تلك الأعمال. أي : أن يثبت لمن سيقوم بالدراسة المقارنة ، قبل البدء، أن أحد هذه الأعمال قد تأثر بالآخر، وفي حالة عدم وجود عنصر التأثير والتأثر، فإن هذه الدراسة إن أجريت فلا يكون مجالها الأدب المقارن ولا تدخل تحته ، وإنما تدخل تحت مجال آخر هو : النقد الأدبي.[20]

وفي واقع الأمر فإن هذا الشرط قد يبدو للوهلة الأولى شرط ذو علاقة بفنيات وتقنيات الدراسة الأدبية المقارنة ،فحسب، لكن من يتفحصه ويدقق في جوانبه يجد أنه لا يخلو البتة ، هو الآخر، من البعد الكولونيالي لأن فرض الرابط التاريخي الذي تثبت وجوبا من خلاله مسألة التأثير والتأثر يقودنا حتما إلى أن الدراسات التي تدخل في مجال الدراسة الأدبية المقارنة هي تلك الدراسة التي تأثر بعضها بالآخر والتي عادة ما يكون أغلبها إن لم نقل كلها دراسات قائمة على المقارنة بين عملين على الأقل كان المؤثر فيهما أدبا أوروبيا والآخر المتأثر إما أن يكون أدبا أوروبي مثله لأن التأثيرات المتبادلة بين الآداب الموجبة عند هذه المدرسة لا تطرح إشكالا، وإما أن يكون هذا الأدب سالبا ينتمي إلى الآداب غير الأوروبية. و ذلك لارتباط هذا الشرط بالشرطين السابقين، ومنه فسيكون هذا الشرط هو شرطا مكملا في بعده الاستعماري الكولونيالي للشروط السابقة التي وإن سقط أحدها أو بعضها، أوكلها من أي دراسة مقارنة، فإنه ،حسب هذه المدرسة، ستنتفي عنها صفة الدراسة الأدبية المقارنة التي تدخل ضمن مجال الأدب المقارن.

الخـــاتمة :

إنه وبوقوفنا على أهم الأسس والمبادئ التي نظَّرت لها المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن ، نجد أن هذه الأسس والمبادئ والمرتكزات التي قامت عليها ، حتى وان كانت تسعى من خلالها لتأسيس علم قائم بذاته يتمتع بالاستقلالية المنهجية عن باقي العلوم الأخرى، إلا أنها تضمنت في الوقت نفسه بشكل أو بآخر أبعادا كولونيالية ، لأن تلك الشروط والقواعد المنهجية التي خصت بها الدراسات المقارنة تحمل في ثناياها مكونات غير علمية ولا أكاديمية ، فشرط التفرقة بين الآداب و الثقافات العالمية، الذي هو أساس الأسس التي قامت عليها هو شرط ومبدأ قائم على تفرقة غير علمية ولا منطقية ، وإن كان له من هدف يذكر فهو بطبيعة الحال ليس

وضع القواعد العلمية المنهجية و التقنية لعلم الأدب المقارن ، بقدر ما هو محاولة بسط سيطرة الدول المستعمِرة على فكر وثقافة شعوب مستعمراتها من الدول الأخرى، والرغبة الشديدة لبعض هذه الدول في الحصول على بعض المزايا الثقافية التي تقارع بها نظيراتها وتجعلها في المقدمة .

وهذه النتيجة والحقيقة هي ما تفطن له حتى الفرنسيون أنفسهم ،من التجديديين المنتسبين للمدرسة الفرنسية ، فيما بعد، أمثال (بشوا ، وبرونيل ، وايتامبول)، وحاولوا بما أمكنهم أن يغيروا من تلك الأسس والمبادي التي قامت على بعض الأفكار الكولونيالية عند هذه المدرسة ، وأن يقوموا بتوجيه هذا العلم في اتجاهه الأكاديمي الصحيح الخالي من كل أشكال التوظيف الكولونيالي والنزعة المركزية الأوروبية التوسعيّة المتعالية ، التي تخدم مساعي الهيمنة الثقافية لبعض الدول الأوروبية وتذكي العقلية الاستعمارية ، وجعله علما أكاديميا راقيا يدرس كل آداب العالم بدون خلفية لا متعالية ولا دونية، وفق مناهج وأسس علمية بحتة .

هوامش البحث:

1- محمد غنيمي هلال، دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر، نهضة مصر ، القاهرة ، ص16

2- أنظر؛ أحمد درويش ، نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الوطن العربي ، دار غريب للطباعة و النشر والتوزيع ،القاهرة ، جمهورية مصر العربية ، 2002، ص27

3- أنظر؛ عبده عبود ، الأدب المقارن مشكلات و آفاق ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سورية، 1999، ص 31

4 - المرجع نفسه ، ص 28

5- سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن – دراسة منهجية - ، المركز الثقافي العربي ، ط1،بيروت ، لبنان 1987 ،ص94

6- ماريوس فرانسوا غويار، الأدب المقارن، ترجمة : هنري زغيب ، ط 2 ،منشورات عويدات، بيروت، لبنان 1988، ص 15

7- أنظر ؛ أحمد دراويش، الأدب المقارن – دراسات نظرية وتطبيقية -، دار النصر للتوزيع و النشر، القاهرة جمهورية مصر العربية، 2006 ،ص 25

8- عيد محمود ، بين فكتور جيرمونسكي وبول فان تيغم، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية – سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية ، المجلد (39)، العدد 4 ، اللاذقية ، الجمهورية العربية السورية،2017، ص 73

9- صابر عبد الدايم، الأدب المقارن بين التراث، والمعاصرة، الطبعة الثانية- مزيدة ومنقحة-، القاهرة ، جمهورية مصر العربية، 2003، ص 11

10- أنظر؛ ويكيبيديا الموسوعة الحرة ؛ موقع :https://ar.wikipedia.org/wiki

11- أنظر؛ حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ط :1 ،الدار العربية للعلوم – ناشرون، بيروت، لبنان 2007، ص 65

12- أنظر ، كلود بيشوا ، أندريه .م روسو، الأدب المقارن ، ط3 ،ترجمة : د. أحمد عبد العزيز، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية ، 2001 ، ص 35

13- أنظر ؛ سعيد علوش ، مرجع سابق ، ص 62 ،64

14- أنظر ؛ صابر عبد الدايم،مرجع سابق، ص 14

15- أنظر؛ طه ندا، الأدب المقارن ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ص20،21

16- أنظر؛ وجدان يحي محمداه، الأدب المقارن في سوريا – اتجاهاته وقضاياه - ، (رسالة دكتوراه غير منشورة) ، جامعة البعث – كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، 2011/2010 ، ص75

17- ادوارد سعيد، الإستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ط :2 ، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان 1984 ،ص165

18- انظر ، عبده عبود ، مرجع سابق، ص 31-32

19- انظـر، ابراهيـم عوض ، في الأدب المقـارن – مباحث واجتهادات- المنار للطباعة والكومبيوتر، 2006 ، ص 13

20- أنظر؛ بكادي محمد، الصراع الأيديولوجي الدولي ودوره في تشكيل أسس ومفاهيم علم الأدب المقارن، مجلة إشكالات في اللغة و الأدب ، العدد الخامس ،(افريل 2014)، ص 252